سورة العنكبوت

ترتيبها ٢٩ — آياتها ٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة ، فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله تعالى : ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ استفهام إنكار ، ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء في الحديث الصحيح «أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء» وهذه الآية كقوله ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ ومثلها في سورة براءة . وقال في البقرة ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه ، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ؛ وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله ﴿إلا لنعلم﴾ إلا لنرى وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود .

وقوله تعالى : ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ أي لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والإمتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم ، ولهذا قال ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا﴾ أي يفوتونا ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي بئس ما يظنون .

مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى : ﴿من كان يرجو لقاء الله﴾ أي في الدار الآخرة ، وعمل الصالحات ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفراً ، فإن ذلك كائن لا محالة لأنه سميع الدعاء بصير بكل الكائنات ، ولهذا قال تعالى : ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم﴾ وقوله تعالى : ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾ كقوله تعالى : ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾ أي من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله تعالى غني عن أفعال العباد ، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين﴾ قال الحسن البصري : إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف . ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم ، ومع بره وإحسانه بهم ، يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، وهو أن يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ، ويجزيهم اجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى : ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ وقال ههنا ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ .

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ، ولهما عليه غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ، ولهذا قال تعالى : ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا * إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً**﴾ ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم ، قال ﴿**وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما**﴾ أي وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك وإياهما ، **فلا تطعهما** في ذلك ، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة ، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب أي حباً دينياً ، ولهذا قال تعالى : ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنه في الصالحين**﴾ .

وقال الترمذي عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن سماك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال : نزلت فيَّ أربع آيات ، فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها ، فنزلت ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه حسناً * وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما**﴾ الآية ، وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضاً . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم ، فارتدوا عن الإسلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله**﴾ قال ابن عباس : يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله ، وكذا قال غيره من علماء السلف ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه**﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿**ذلك هو الضلال البعيد**﴾ ثم قال عز وجل ﴿**ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم**﴾ أي ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد ، وفتح ومغانم ، ليقولن هؤلاء لكم : إنا كنا معكم ، أي إخوانكم في الدين ، كما قال تعالى : ﴿**الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين**﴾ ، وقال تعالى : ﴿**فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين**﴾ وقال تعالى مخبراً عنهم ههنا : ﴿**ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم**﴾ ثم قال الله تعالى : ﴿**أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين**﴾ أي أو ليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم ، وان أظهروا لكم الموافقة .

وقوله تعالى : ﴿**وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين**﴾ أي وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ، ليتميز هؤلاء من هؤلاء ، من يطيع الله في الضراء والسراء ، ومن إنما يطيعه في حظ نفسه ، كما قال تعالى : ﴿**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم**﴾ ، وقال تعالى بعد وقعة أحد التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان ﴿**ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب**﴾ الآية .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ

إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ، واتبعوا سبيلنا ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ أي وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا وفي رقابنا ، كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك في رقبتي ، قال الله تعالى تكذيباً لهم ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون﴾ أي : فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد ، قال الله تعالى : ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ وقال تعالى : ﴿ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة ، أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزاراً أخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً ، كما قال تعالى ؛ ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ الآية ؛ وفي الصحيح «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً» . وفي الصحيح «ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل» .

وقوله تعالى : ﴿وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ أي يكذبون ويختلقون من البهتان ، وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثاً فقال : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا عثمان بن حفص بن أبي العالية ، حدثني سليمان بن حبيب المحاربي عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به ، ثم قال «إياكم والظلم ، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول : وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلم ثم ينادي مناد فيقول : أين فلان بن فلان ؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال ، فيشخص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدي الرحمن عز وجل ، ثم يأمر المنادي فينادي : من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلم ، فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن ، فيقول الرحمن : اقضوا عن عبدي ؛ فيقولون : كيف نقضي عنه ؟ فيقول : خذوا لهم من حسناته ، فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة ، وقد بقي من أصحاب الظلامات ، فيقول : اقضوا عن عبدي ؛ فيقولون : لم يبق له حسنة ؛ فيقول خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه» ثم فزع النبي ﷺ بهذه الآية الكريمة ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ . وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا ، وأخذ من مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ؛ فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا لم تبق له حسنة ، أخذ من سيئاتهم فطرح عليه» . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن أبي الحواري ، حدثنا أبو بشر الحذاء عن أبي حمزة الثمالي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ «يا معاذ إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بإصبعين ، فلا ألفينك تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك» .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ ، يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضاً عنه وتكذيباً له ، وما آمن معه منهم إلا قليل ، ولهذا قال تعالى : ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار ، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك و لا تحزن عليهم ، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وبيده الأمر ، وإليه ترجع الأمور ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية﴾ الآية ؛ واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ، ويذل عدوك ويكبتهم ، ويجعلهم أسفل السافلين .

قال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن ماهك عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ، ولبث

في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا . وقال قتادة : يقال إن عمره كله ألف سنة إلا خمسين عاماً لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة ، ودعاهم ثلثمائة سنة ، ولبث بعد الطوفان ثلثمائة سنة وخمسين عاماً ، وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً . وقال عون بن أبي شداد : إن الله تعالى أرسل نوحاً إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة ، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة سنة ، وهذا أيضاً غريب ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقول ابن عباس : أقرب ، والله أعلم .

وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مجاهد قال : قال لي ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قال : قلت ألف سنة إلا خمسين عاماً ، قال : فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا . وقوله تعالى : ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ أي الذين آمنوا بنوح عليه السلام ، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في سورة هود ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته .

وقوله تعالى : ﴿وجعلناها آية للعالمين﴾ أي وجعلنا تلك السفينة باقية إما عينها ، كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان ، كما قال تعالى : ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ـ إلى قوله ـ ومتاعاً إلى حين﴾ وقال تعالى : ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ وقال ههنا ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾ وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس ، كقوله تعالى : ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ أي وجعلنا نوعها رجوماً فإن التي يرمى بها ليست هي زينة للسماء ، وقال تعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ ولهذا نظائر كثيرة . وقال ابن جرير : لو قيل إن الضمير في قوله ﴿وجعلناها﴾ عائد إلى العقوبة لكان وجها ، والله أعلم .

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ
وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده في الشكر ، فإنه المشكور على النعم لا مسدي لها غيره ، فقال لقومه ﴿اعبدوا الله واتقوه﴾ أي أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة ، ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة وإنما هي مخلوقة مثلكم ، هكذا رواه العوفي عن ابن عباس ؛ وبه قال مجاهد والسدي ، وروى الوالبي عن ابن عباس : وتصنعون إفكا أي تنحتونها أصناما ، وبه قال مجاهد في رواية ، وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير رحمه الله . وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾ وهذا أبلغ في الحصر كقوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ ولهذا قال ﴿فابتغوا﴾ أي فاطلبوا ﴿عند الله الرزق﴾ أي لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئاً ﴿واعبدوه واشكروا له﴾ أي كلوا من رزقه واعبدوه وحده ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿إليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله .

وقوله تعالى : ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾ أي فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء . وقال قتادة في قوله ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾ قال : يعزي نبيه ﷺ ، وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول واعترض بهذا إلى قوله ﴿فما كان جواب قومه﴾ وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً . والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام ، يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله ﴿فما كان جواب قومه﴾ والله أعلم .

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ
مَنْ يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين ، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته ، فإنه سهل عليه يسير لديه ، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء : السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبراري وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها ؛ وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذي يقول للشيء كن فيكون ، ولهذا قال ﴿أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير﴾ كقوله تعالى : ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ ثم قال تعالى : ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾ أي يوم القيامة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ وكقوله تعالى : ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟* أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾ .

وقوله تعالى : ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والأمر مهما فعل فعدل ، لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة ، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم» ولهذا قال تعالى : ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ أي ترجعون يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يعجزه أحد من أهل سمواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، فكل شيء خائف منه فقير إليه ، وهو الغني عما سواه ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * والذين كفروا بآيات الله ولقائه﴾ أي جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي موجع شديد في الدنيا والآخرة .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل ، أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة ، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم ﴿فقالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾ وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحوطوا حولها ، ثم أضرموا فيها النار ، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق ، ثم قذفوه فيها ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً ، ولهذا وأشباهه جعله الله للناس إماماً ، فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان .

وقوله تعالى : ﴿فأنجاه الله من النار﴾ أي سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾ يقول لقومه مقرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا ، وهذا على قراءة من نصب مودة بينكم على أنه مفعول له ؛ وأما على قراءة الرفع ، فمعناه إنما اتخاذكم هذا لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط ﴿ثم يوم القيامة﴾ ينعكس هذا الحال ، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضاً وشنآناً ثم ﴿يكفر بعضكم ببعض﴾ أي تتجاحدون ما كان بينكم ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ وقال تعالى : ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ وقال ههنا : ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار﴾ الآية ، أي ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله ، وهذا حال الكافرين ، وأما المؤمنون فبخلاف ذلك .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ، حدثنا أبو عاصم الثقفي ، حدثنا الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومي عن أبيه عن جده ، عن أم هانىء أخت علي بن أبي طالب قالت : قال لي النبي ﷺ «أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد ، فمن يدري أين الطرفان ؟ ـ قالت : الله ورسوله أعلم ـ ثم ينادي مناد من تحت العرش : يا أهل التوحيد ، فيشرئبون ـ قال أبو عاصم يرفعون رءوسهم ـ ثم ينادي : يا أهل التوحيد ، ثم ينادي الثالثة : يا أهل التوحيد ، إن الله قد عفا عنكم ـ قال ـ فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلامات الدنيا ـ يعني المظالم ـ ثم ينادي : يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض ، وعلى الله الثواب» .

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له لوط ، يقال إنه ابن أخي إبراهيم ، يقولون هو لوط بن هاران بن آزر ، يعني ولم يؤمن به ، من قومه سواه وسارة امرأة إبراهيم الخليل ، لكن يقال كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار فسأل إبراهيم عن سارة ما هي منه ، فقال : أختي ، ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له إنك أختي فلا تكذبيني ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فأنت أختي في الدين . وكأن المراد من هذا ـ والله أعلم ـ أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك ، فإن لوطاً عليه السلام آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وأقام بها ، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي .

وقوله تعالى : ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ يحتمل عود الضمير في قوله ﴿وقال إني مهاجر﴾ على لوط ، لأنه هو أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم ؛ قاله ابن عباس والضحاك ، وهو المكنى عنه بقوله ﴿فآمن له لوط﴾ أي من قومه ، ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ، ولهذا قال ﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ، الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية . وقال قتادة : هاجروا جميعاً من كوثى ، وهي من سواد الكوفة إلى الشام . قال : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال «إنها ستكون هجرة بعد هجرة ينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم ، ويبقى في الأرض شرار أهلها حتى تلفظهم أرضهم ، وتقذرهم روح الله عز وجل ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم إذا باتوا ، وتقيل معهم إذا قالوا ، وتأكل ما سقط منهم» .

وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث فرواه مطولاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن قتادة عن شهر بن حوشب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية ، قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي ، فجئته إذ جاء رجل فانتبذ الناس وعليه خميصة ، فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث ، فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم ، لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها ، فتلفظهم أرضهم تقذرهم نفس الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير ، فتبيت معهم إذا باتوا ، وتقيل معهم إذا قالوا ، وتأكل من تخلف منهم» قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول

«سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، كلما خرج منهم قرن قطع كلما خرج منهم قرن قطع ـ حتى عدها زيادة على عشرين مرة ـ كلما خرج منهم قرن قطع حتى يخرج الدجال في بقيتهم» ورواه الإمام أحمد عن أبي داود وعبد الصمد كلاهما عن هشام الدستوائي عن قتادة به ، وقد رواه أبو داود في سننه فقال في كتاب الجهاد [باب ما جاء في سكنى الشام] حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمر ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «ستكون هجرة بعد هجرة ، وينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم ، ويبقى في الأرض شرار أهلها ، تلفظهم أرضهم ، وتقذرهم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا أبو جناب يحيى بن أبي حية عن شهر بن حوشب قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بآخرة الآن والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول «لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر ، وتبايعتم بالعينة ، وتركتم الجهاد في سبيل الله ، ليلزمنكم الله مذلة في أعناقكم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه ، وتتوبوا إلى الله تعالى» وسمعت رسول الله ﷺ يقول «لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مهاجر أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها ، وتلفظهم أرضوهم ، وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث يبيتون ، وما سقط منهم فلها» ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول «يخرج قوم من أمتي يسيئون الأعمال ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ـ قال يزيد : لا أعلمه إلا قال ـ يحقر أحدكم علمه مع علمهم ، يقتلون أهل الإسلام ، فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ؛ فطوبى لمن قتلهم ، وطوبى لمن قتلوه ، كلما طلع منهم قرن قتله الله» فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة أو أكثر ، وأنا أسمع .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : حدثنا أبو الحسن بن الفضل ، أخبرنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا : حدثنا يحيى بن حمزة ، حدثنا الأوزاعي عن نافع ، وقال أبو النضر عمن حدثه عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال «سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة إلى مهاجر إبراهيم ، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها ، تلفظهم الأرضون ، وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، لها ما سقط منهم» غريب من حديث نافع ، والظاهر أن الأوزاعي قد رواه عن شيخ له من الضعفاء ، والله أعلم . وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ .

وقوله تعالى : ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ كقوله ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ، وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً﴾ أي أنه لما فارق قومه ، أقرّ الله عينه بوجود ولد صالح نبي ، وولد له ولد صالح نبي في حياة جده ، وكذلك قال تعالى : ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ أي زيادة ، كما قال تعالى : ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي يولد لهذا الولد ولد في حياتكما ، تقر به أعينكما ، وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن وثبتت به السنة النبوية ، قال الله تعالى : ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً﴾ الآية ، وفي الصحيحين «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام» فأما ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ قال : هما ولدا إبراهيم ، فمعناه أن ولد الولد بمنزلة الولد ، فإن هذا الأمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس .

وقوله تعالى : ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً ، وجعله للناس إماماً أن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام في ملئهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وقوله ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، وكل أحد يحبه ويتولاه ؛ كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم : مع القيام بطاعة الله من

جميع الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ أي قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه ، ولهذا قال تعالى : ﴿واتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ وكما قال تعالى : ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ـ إلى قوله ـ وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام ، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم ، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله ، ويخالفون ويقطعون السبيل ، أي يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ أي يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها ، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ؛ فمن قائل كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ ، قاله مجاهد ؛ ومن قائل كانوا يتضارطون ويتضاحكون ، قالته عائشة رضي الله عنها والقاسم ، ومن قائل كانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم وكانوا شراً من ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن أسامة ، أخبرني حاتم بن أبي صغيرة ، حدثنا سماك بن حرب عن أبي صالح مولى أم هانىء عن أم هانيء قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال «يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه» ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة ، عن أبي يونس القشيري عن حاتم بن أبي صغيرة به . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سماك . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير عن عمرو بن قيس عن الحكم عن مجاهد ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال : الصفير ولعب الحمام والجلاهق والسؤال في المجلس ، وحل أزرار القباء . وقوله تعالى : ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال ﴿رب انصرني على القوم المفسدين﴾ .

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغي للضيف ، فلما رآهم إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام ، نكرهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة ، وكانت حاضرة ، فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر ، فلما جاءت إبراهيم البشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أخذ يدافع لعلهم ينظرون لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴿قال إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي من الهالكين ، لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم ، ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان ، فلما رآهم كذلك ﴿سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ أي اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا

امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد . ولهذا قال تعالى : ﴿ولقد تركنا منها آية بينة﴾ أي واضحة ﴿لقوم يعقلون﴾ كما قال تعالى : ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾ .

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام ، أنه أنذر قومه أهل مدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة ، فقال ﴿يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم : معناه واخشوا اليوم الآخر ، وهذا كقوله تعالى : ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ وقوله ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد وهو السعي فيها والبغي على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها ، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم ، وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف وهود والشعراء . وقوله ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ قال قتادة : ميتين ؛ وقال غيره : قد ألقي بعضهم على بعض .

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ
بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم ، وأخذهم بالانتقام منهم ، فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف ، وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن ؛ وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى ؛ وكانت العرب تعرف مساكنها جيداً ، وتمر عليها كثيراً ؛ وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة ؛ وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله ﷺ ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ أي كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا﴾ وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية شديدة الهبوب جداً ، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم ، وتقتلعهم من الأرض ، فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه ، فيبقى بدناً بلا رأس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوه سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم ، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى في الأرض مرحاً ، وفرح ومرح وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال في مشيته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صبيحة واحدة ، فلم ينج منهم مخبر ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ أي فيما فعل بهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ . أي إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم ، وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية ، وهو من باب اللف والنشر ، وهو أنه ذكر

الأمم المكذبة ، ثم قال ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ أي من هؤلاء المذكورين ، وإنما نبهت على هذا لأنه قد روى ابن جريج قال : قال ابن عباس في قوله ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ قال قوم لوط ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ قال : قوم نوح ، وهذا منقطع عن ابن عباس : فإن ابن جريج لم يدركه . ثم قد ذكر الله في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء ، وأطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق ، وقال قتادة ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ قال : قوم لوط ، ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ قوم شعيب ، وهذا بعيد أيضاً لما تقدم ، والله أعلم .

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ، ويتمسكون بهم في الشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، فليس في أيدي هؤلاء من أمرهم ، إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدي عنه شيئاً ، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء ، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع ، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها .

ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به ، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم ، ثم قال تعالى : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه . قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثني ابن لهيعة عن أبي قبيل عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل ، وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص رضي الله عنه حيث يقول الله تعالى : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا أبي ، حدثنا سنان عن عمرو بن مرة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني ، لأني سمعت الله تعالى يقول ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ .

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعني لا على وجه العبث واللعب ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ . وقوله تعالى : ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية ، ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن ، وهو قراءته وإبلاغه للناس ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات ، أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك . وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعاً «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم تزده من الله إلا بعداً» .

[ذكر الآثار الواردة في ذلك]

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن هارون المخرمي الفلاس ، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد ، حدثنا عمر بن أبي عثمان ، حدثنا الحسن عن عمران بن حصين قال : سئل النبي ﷺ عن قول الله ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ قال «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له» . وحدثنا علي بن الحسين ، حدثنا يحيى بن أبي طلحة اليربوعي ، حدثنا أبو معاوية عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بها من الله إلا بعداً» ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا خالد بن عبد الله عن العلاء بن المسيب عمن ذكره عن

ابن عباس في قوله ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ قال : فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً ؛ فهذا موقوف . قال ابن جرير : وحدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا علي بن هاشم بن البريد عن جويبر عن الضحاك عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة» وطاعة الصلاة أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر . قال : قال سفيان ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك﴾ قال : فقال سفيان : إي والله تأمره وتنهاه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد عن جويبر عن الضحاك عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ـ وقال أبو خالد مرة عن عبد الله ـ «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر» والموقوف أصح ؛ كما رواه الأعمش عن مالك بن الحارث عن عبد الرحمن بن يزيد قال : قيل لعبد الله : إن فلاناً يطيل الصلاة ، قال : إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها . وقال ابن جرير : حدثنا علي ، حدثنا إسماعيل بن مسلم عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ «من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بها من الله إلا بعداً» والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، أنبأنا جرير ـ يعني ابن عبد الحميد ـ عن الأعمش عن أبي صالح قال : أراه عن جابر ، شك الأعمش ، قال : قال رجل للنبي ﷺ : إن فلاناً يصلي بالليل ، فإذا أصبح سرق . قال «سينهاه ما تقول» . وحدثنا محمد بن موسى الجرشي ، أخبرنا زياد بن عبد الله عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر عن النبي ﷺ بنحوه ، ولم يشك ، ثم قال : وهذا الحديث قد رواه عن الأعمش غير واحد ، واختلفوا في إسناده ، فرواه غير واحد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو غيره . وقال قيس عن الأعمش عن أبي سفيان ، عن جابر قال جرير وزياد عن عبد الله عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، أخبرنا الأعمش قال : أرى أبا صالح عن أبي هريرة ، قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلاناً يصلي بالليل ، فإذا أصبح سرق ، فقال «إنه سينهاه ما تقول» . وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي أعظم من الأول ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم . وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ قال : إن الصلاة فيها ثلاث خصال ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخصال فليست بصلاة : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه وقال ابن عون الأنصاري : إذا كنت في صلاة ، فأنت في معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر .

وقال حماد بن أبي سليمان ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ يعني ما دمت فيها . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ولذكر الله أكبر﴾ يقول : ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه ؛ وكذا روى غير واحد عن ابن عباس ؛ وبه قال مجاهد وغيره . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن داود بن أبي هند عن رجل عن ابن عباس ﴿ولذكر الله أكبر﴾ قال : ذكر الله عند طعامك وعند منامك ، قلت : فإن صاحباً لي في المنزل يقول غير الذي تقول ، قال : وأي شيء يقول ؟ قلت : قال يقول الله تعالى : ﴿فاذكروني أذكركم﴾ فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه ، قال : صدق ، وحدثنا أبي ، حدثنا النفيلي ، حدثنا إسماعيل عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ولذكر الله أكبر﴾ قال : لها وجهان ، قال : ذكر الله عندما حرمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه .

قال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، أخبرنا هشيم ، أخبرنا عطاء بن السائب عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لي ابن عباس : هل تدري ما قوله تعالى : ﴿ولذكر الله أكبر﴾ ؟ قال : قلت نعم ، قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجيباً وما هو كذلك ولكنه إنما يقول ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه ؛ وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس ، وروي أيضاً عن ابن مسعود وأبي الدرداء وسلمان الفارسي وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف . وقال آخرون : بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين ، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ الآية ، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون ﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾ وهذا القول اختاره ابن جرير ، وحكاه عن ابن زيد .

وقوله تعالى : ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ أي حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم ، قال الله عز وجل : ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ـ إلى قوله ـ إن الله قوي عزيز﴾ قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف ، قال مجاهد ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ يعني أهل الحرب ، ومن امتنع منهم من أداء الجزية . وقوله تعالى : ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾ يعني إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ، ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً ، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً لا مبدلاً ولا مؤولاً .

قال البخاري رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عثمان بن عمر ، أخبرنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وما أنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون» وهذا الحديث تفرد به البخاري . وقال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن عمرو ، أخبرنا يونس عن الزهري ، أخبرني ابن أبي نملة أن أبا نملة الأنصاري أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود ، فقال : يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله ﷺ «الله أعلم» قال اليهودي : أنا أشهد أنها تتكلم ؛ فقال رسول الله ﷺ «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان حقاً لم تكذبوهم ، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم» (قلت) وأبو نملة هذا هو عمارة . وقيل عمار ، وقيل عمرو بن معاذ بن زرارة الأنصاري رضي الله عنه ، ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان ، لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحاً .

قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عاصم ، أخبرنا سفيان عن سليمان بن عامر عن عمارة بن عمير عن حريث بن ظهير عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال . وقال البخاري : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، أخبرنا ابن شهاب عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث تقرءونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم .

وقال البخاري : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهري ، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة ، وذكر كعب الأحبار ، فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب . (قلت) معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد ، لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ، لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة ، ومع ذلك وقرب العهد ، وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لا يعلمها إلا الله عز وجل ، ومن منحه الله تعالى علماً بذلك كل بحسبه ، ولله الحمد والمنة .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

قال ابن جرير : يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك هذا

الكتاب ، وهذا الذي قاله حسن ومناسبته وارتباطه جيد . وقوله تعالى : ﴿فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما . وقوله تعالى : ﴿ومن هؤلاء من يؤمن به﴾ يعني العرب من قريش وغيرهم ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل وهيهات .

ثم قال تعالى : ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة ، كما قال تعالى : ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ الآية ، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين ، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الأقاليم .

ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قضى عليه محمد بن عبد الله ؛ فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري : ثم أخذ فكتب . وهذه محمولة على الرواية الأخرى : ثم أمر فكتب . ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي ، وتبرءوا منه ، وأنشدوا في ذلك أقوالاً وخطبوا به في محافلهم ؛ وإنما أراد الرجل ـ أعني الباجي ـ فيما يظهر عنه ، أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة ، كما قال ﷺ إخباراً عن الدجال «مكتوب بين عينيه كافر» وفي رواية «ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن» وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له ، قال الله تعالى : ﴿وما كنت تتلو﴾ أي تقرأ ﴿من قبله من كتاب﴾ لتأكيد النفي ولا تخطه بيمينك ، تأكيد أيضاً ، وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى : ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ .

وقوله تعالى : ﴿إذاً لارتاب المبطلون﴾ أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس ، فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾ قال الله تعالى : ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ الآية ؛ وقال ههنا ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبراً ، يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً ، كما قال تعالى : ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وقال رسول الله ﷺ «ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً» وفي حديث عياض بن حماد في صحيح مسلم يقول الله تعالى : ﴿إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظاناً﴾ أي لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل ، لأنه قد جاء من الحديث الآخر «لو كان القرآن في إهاب ما أحرقته النار» ولأنه محفوظ في الصدور ميسر على الألسنة ، مهيمن على القلوب ، معجز لفظاً ومعنى ، ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة أناجيلهم في صدورهم .

واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى : ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ، ولا تخطه بيمينك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ، ونقله عن قتادة وابن جريج ، وحكي الأول عن الحسن البصري فقط ، قلت وهو الذي رواه العوفي عن ابن عباس ، وقاله الضحاك وهو الأظهر والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون ، أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى : ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ .

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ
أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات ، يعنون ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما أتى صالح بناقته ، قال الله تعالى : ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنما الآيات عند الله﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ، لأن هذا سهل عليه يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان ، فلا يجيبكم إلى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون * وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾ .

وقوله ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة ، فعلي أن أبلغكم رسالة الله تعالى ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ وقال تعالى : ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقلهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه ؛ فقال تعالى : ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ أي أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب ، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلي ، كما قال تعالى : ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ وقال تعالى : ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» أخرجاه من حديث الليث . وقد قال الله تعالى : ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ أي إن في هذا القرآن لرحمة أي بياناً للحق وإزاحة للباطل ، وذكرى بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون .

ثم قال تعالى : ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني ، كما قال تعالى : ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ أي لا تخفى عليه خافية ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ أي يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل ، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل ، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحل عليهم ، كما قال تعالى : ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ وقال ههنا ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾ أي لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه ، ثم قال ﴿ولياتينهم بغتة﴾ أي فجأة ﴿وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة .

قال شعبة عن سماك عن عكرمة : قال في قوله ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ قال : البحر وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد ، حدثنا أبي عن مجاهد عن الشعبي أنه سمع ابن عباس يقول ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ وجهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه ، وتكور فيه الشمس والقمر ؛ ثم يوقد فيكون هو جهنم . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عاصم ، أخبرنا عبد الله بن أمية ، حدثني محمد بن حيي ، أخبرني صفوان بن يعلى عن أبيه أن النبي ﷺ قال «البحر هو جهنم» قالوا ليعلى ، فقال : ألا ترون أن الله تعالى يقول ﴿ناراً أحاط

بهم سرادقها﴾ قال : لا والذي نفس يعلى بيده ، لا أدخلها أبداً حتى أعرض على الله ولا يصيبني منها قطرة حتى أعرض على الله تعالى ، هذا تفسير غريب ، وحديث غريب جداً ، والله أعلم .

ثم قال عز وجل : ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ كقوله تعالى : ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾ وقال تعالى : ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾ وقال تعالى : ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ الآية ؛ فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ في العذاب الحسي . وقوله تعالى : ﴿ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوي على النفوس ، كقوله تعالى : ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ وقال تعالى : ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً * هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ .

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾ قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثني جبير بن عمرو القرشي ، حدثني أبو سعد الأنصاري عن أبي بحر مولى الزبير بن العوام عن الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ «البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيراً فأقم» ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك ، فوجدوا خير المنزلين هناك : أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى ، فآواهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سيوماً ببلاده ، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة .

ثم قال تعالى : ﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾ أي أينما كنتم يدرككم الموت ؛ فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه ، ثم إلى الله المرجع والمآب ، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ، ووافاه أتم الثواب ولهذا قال تعالى : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار﴾ أي لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن ، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولا ﴿نعم أجر العاملين﴾ نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿الذين صبروا﴾ أي على دينهم ، وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق موعوده .

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله : حدثنا أبي ، أخبرنا صفوان المؤذن ، أخبرنا الوليد بن مسلم ، أخبرنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبي سلام الأسود ، حدثني أبو معاوية الأشعري أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ ، حدثه أن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام ، وقام بالليل والناس نيام ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في مائر الأقطار والأمصار ، ولهذا قال تعالى : ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾ أي لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد ﴿الله يرزقها وإياكم﴾

أي الله يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء والحيتان في الماء . قال تعالى : ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الرحمن المروي ، حدثنا يزيد يعني ابن هارون ، حدثنا الجراح بن منهال الجزري ـ هو أبو العطوف ـ عن الزهري عن رجل عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال لي «يا ابن عمر ما لك لا تأكل ؟» قال : قلت لا أشتهيه يا رسول الله ، قال لكني أشتهيه ، وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟» قال : فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾ فقال رسول الله ﷺ «إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية ، فإن الحياة بيد الله ، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد» هذا حديث غريب ، وأبو العطوف الجزري ضعيف ، وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض ، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياماً حتى يسود الريش ، فيظل الفرخ فاتحا فاه يتفقد أبويه فيقيض الله تعالى طيراً صغاراً كالبرغش ، فيغشاه فيتقوت به تلك الأيام حتى يسود ريشه ، والأبوان يتفقدانه كل وقت ، فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه ، فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق ، ولهذا قال الشاعر :

يا رازق النعاب في عشه ... وجابر العظم الكسير المهيض

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر كقول النبي ﷺ «سافروا تصحوا وترزقوا» قال البيهقي : أخبرنا إملاء أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد ، أخبرنا محمد بن غالب ، حدثني محمد بن سنان ، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن يزداد شيخ من أهل المدينة ، حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «سافروا تصحوا وتغنموا» قال : ورويناه عن ابن عباس : وقال الإمام أحمد : حدثنا قبيصة ، أخبرنا ابن لهيعة عن دراج عن عبد الرحمن بن حجيرة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «سافروا تربحوا وصوموا تصحوا ، واغزوا تغنموا» وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعاً ، وعن معاذ بن جبل موقوفاً ، وفي لفظ «سافروا مع ذوي الجد والميسرة» قال : ورويناه عن ابن عباس : وقوله ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو ، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم ، فتفاوت بينهم ، فمنهم الغني والفقير وهو العليم بما يصلح كلاً منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك ، فلم يعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك .

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الآباد . وقوله تعالى : ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لآثروا ما يبقى على ما يفنى ؛ ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا منهم دائماً ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ كقوله تعالى : ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾ الآية ؛ وقال ههنا ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ وقد ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل ، أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة ؛ فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا ينجي ههنا إلا هو ؛ فقال عكرمة : والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره ، فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره ، اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد ، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً ، فكان كذلك . وقوله تعالى : ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة ، لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنه كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل ، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ .

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً ، كما قال تعالى : ﴿لإيلاف قريش﴾ إلى آخر السورة . وقوله تعالى : ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد و﴿بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ فكفروا بنبي الله وعبده ورسوله ، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله ، وأن لا يشركوا به ، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره ، فكذبوه فقاتلوه ، فأخرجوه من بين أظهرهم ، ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم ، وقتل من قتل منهم ببدر ، ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ففتح الله على رسوله مكة ، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم .

ثم قال تعالى : ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه﴾ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله ، فقال : إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر والثاني مكذب ، ولهذا قال تعالى : ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ ثم قال تعالى : ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لنهدينهم سبلنا﴾ أي لنبصرنهم سبلنا ، أي طرقنا في الدنيا والآخرة .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي الحواري ، أخبرنا عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ قال : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبي الحواري : فحدثت به أبا سليمان يعني الداراني ، فأعجبه وقال : ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد الله حتى وافق ما في قلبه .

وقوله ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عيسى بن جعفر قاضي الري ، حدثنا أبو جعفر الرازي عن المغيرة عن الشعبي قال : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، والله أعلم . آخر تفسير سورة العنكبوت . ولله الحمد والمنة .